كتابة : أميمة عزالدين

رسوم : صفاء نبوي

أَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ حِينَما أكونُ بِرِفْقَةِ أخي الكَبيرِ «وليد».
يَدي الصَّغيرَةُ تَنامُ بِاطْمِئْنانٍ في كَفِّهِ الكَبيرةِ قَليلًا،
«وَليد» يَكْبرُني بِسَبْعِ سَنَواتٍ كامِلَة، يَلْعَبُ معي
بِالكُرَة، ونُشاهِدُ مَعًا التِّلفازَ والرُّسوم المُتَحَرّكَة، وأَيْضًا
نَقْرَأُ مَعًا، وأَحْيانًا يُساعِدُني في التَّلْوين. عندما أَسيرُ
معهُ يَكونُ ظِلُّهُ أَطْوَلَ من ظِلّي.

بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ أَقول: «ظِلُّكَ أَطْوَلُ من ظِلّي يا «وَليد»،
يا لَلرَّوْعَة!».

ذاتَ يَوْم، شَعَرْتُ بِالكَسَلِ الشَّديدِ وبِعَدَمِ الرَّغْبَةِ في اللَّعِبِ أَوْ تَناوُلِ المُثَلَّجاتِ الّتي نُحِبُّها أنا و«وَليد»، حَتّى جاءَ ووَضَعَ يَدَهُ عَلى جَبيني وَنادى أُمّي بِخَوْف: «ماما، أَسْرِعي، فُؤاد مَريضٌ جِدًّا، جِسْمُهُ ساخِن، حَرارَتُهُ مُرْتَفِعَة».

جاءَ الطَّبيبُ الّذي قالَ إنَّني أُعاني الحُمّى، وإنَّ حَرارَتي تَقْتَرِبُ مِنَ الأَرْبعين.

بِصَوْتٍ ضَعيف، وأنا أَنْظُرُ إلى ميزانِ الحَرارَة: «إنَّهُ يُشْبِهُ القِطارَ المُحَمَّلَ بِالزِّئْبَقِ لَمّا يَصِلُ إلى مَحَطَّتِهِ الأَخيرَةِ، الأَرْبَعين!».

نَصَحني الطَّبيبُ بِتَناوُلِ الدَّواءِ بِانْتِظام، وبالرّاحَةِ في السَّرير. كانَ مَذاقُ الدَّواءِ مُرًّا لِلغايَة، ورَفَضْتُ تَناوُلَهُ حَتّى أَحْضَرَ لي «وَليد» حَلْوى «المارشميلو» الَّتي أُحِبُّها كَثيرًا. كانَ يُعْطيني مِنْها كُلَّما تَناوَلْتُ دَوائي في مَواعيدِه.

ما زِلْتُ صَغيرًا، عُمْري لا يَتَجاوَزُ السّابِعَة، أُحِبُّ التَّلْوينَ جِدًّا، وكَذَلِكَ القِراءَة، وأُحِبُّ كَثيرًا أخي «وَليد» الَّذي يَتَحَمَّلُ تَصَرُّفاتي الطُّفولِيَّة.

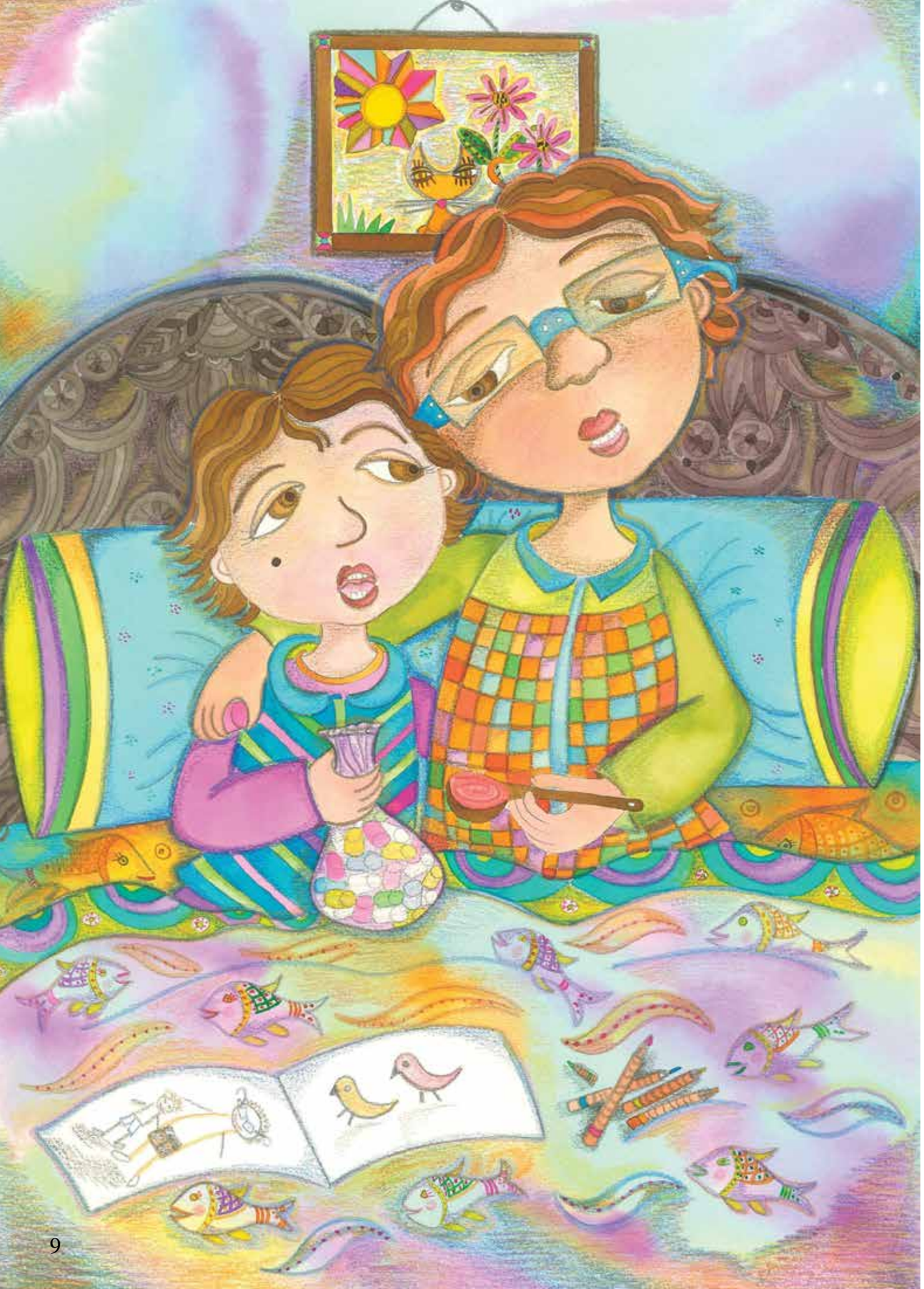

تَعَلَّقْتُ بِهِ وطَلَبْتُ منهُ بِإلْحاحٍ أَنْ أَخْرُجَ معهُ هو وَأَصْدِقائِه، وَوَعَدْتُهُ أَلّا أُسَبِّبَ أيَّ مَشاكِلَ لَهُم، وأَنْ أَكونَ ولَدًا لَطيفًا.

ولَمّا وافَق، وَجَدْتُ أَنَّني مُجَرَّدَ طِفْلٍ صَغيرٍ بَيْنَهُم، فَشَعَرْتُ بِالغَيْظِ لِأَنَّني أَقْصَرُهُمْ وأَصْغَرُهُم. لِذَلِك، كُلَّما بَدَأوا حَديثَهُم، كنتُ أَتَدَخَّلُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ وأُقاطِعُهُم، حَتّى شَعَروا بِالضَّجَرِ مِنّي، وَاتَّفَقوا ألّا يُكْمِلوا نُزْهَتَهُم.

رَحَلَ أَصْدِقاءُ «وَليد» عَنّا، وَنَظَرَ إلَيَّ أخي بِعِتابٍ شَديدٍ مِنْ دونِ أَنْ يَتَكَلَّمَ كَلِمَةً واحِدَة.

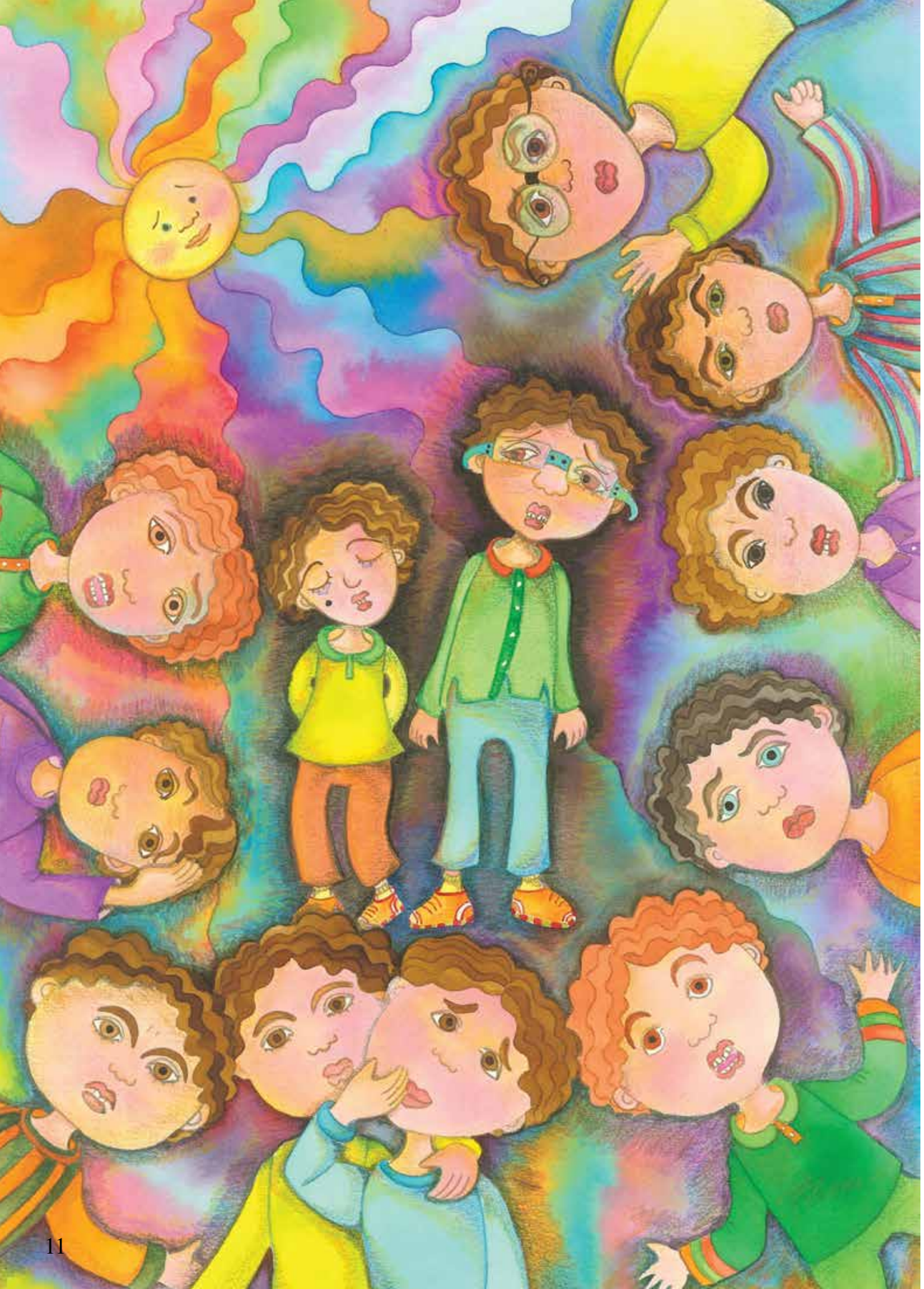

سِرْتُ بِجِوارِهِ وَوَجَدْتُ قامَتَهُ تَطول، وَأنا قامَتي تَقْصُر، حَتّى شَعَرْتُ بِنَفْسي مُجَرَّدَ قَزَمٍ صَغيرٍ لا يَظْهَرُ عَلى الأَرْض... قُلْتُ لَه: «أنا قَزَمٌ الآن... أَشْعُرُ بِرَغْبَةٍ في أَنْ تَحْمِلَني عَلى كَتِفَيْكَ كالماضي».

لَمْ يَرُدّ، كَرَّرْتُ جُمْلَتي: «أنا قَزَم... وأَشْعُرُ أَنَّني سَأَتَحَوَّلُ إلى كُرَة... أَتُريدُ رَكْلِيَ يا «وَليد»؟ رُبَّما تَرْغَبُ في مُعاقَبَتي».

لَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ أَيْضًا حَتّى وَصَلْنا إلى البَيْتِ وَلَزِمَ غُرْفَتَهُ لا يُكَلِّمُني ولا يُشارِكُني الطَّعامَ ولا الدَّرْس. شَعَرْتُ بِالوِحْدَة، وكُلَّما نَظَرَ إِليّ، وَجَدْتُ نَظَراتِهِ تُعاتِبُني.

شَعَرْتُ بِالخَجَلِ مِنْ نَفْسي. سَأَلْتُهُ مَرَّةً أُخْرى أَنْ يَصْطَحِبَني مَعَهُ وقُلْتُ لَه: «لَنْ أخْذُلَكَ هذه المَرَّةَ يا وَليد»، فَقَدْ كَبرْت».

وَوَقَفْتُ عَلى أَطْرافِ أَصابِعي حَتّى أُقارِبَهُ في الطّول، ضَحِكَ بِصَفاءٍ وَمَحَبَّة، لم يَرُدّ، بَل أَخَذَني مِنْ يَدي وَاخْتارَ لي مَلابِسَ لائِقَةً لِلنُّزْهَة، وسِرْنا مَعًا مِنْ دونِ أَن أُحاوِلَ دَوْسَ ظِلِّه.